الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

بحثاً عن ماركس

سعد محمد رحيم
كاتب

ماركس، قبل أي شيء آخر، هو منظّر اقتصادي، ولكنه ليس كذلك فقط، وليس هو أي منظر اقتصادي.. خصص أريك رول في كتابه (تاريخ للفكر الاقتصادي) فصلاً مستقلاً لماركس ونظريته في الاقتصاد، مؤكداً أنه لا محيص من تفريد فصل لماركس في حال تدوين أي تاريخ للفكر الاقتصادي، ولذا لن نفهم ماركس إذا لم نفهم تطور فكر الاقتصاد السياسي منذ آدم سمث وبقية النخبة من الاقتصاديين الكلاسيكيين العظام في الأقل وحتى راهن الفكر الاقتصادي ما بعد ماركس. فماركس في تاريخ الفكر الاقتصادي محطة مهمة، لابد من أن تمر بها قطارات الفكر الاقتصادي مهما كانت طبيعتها واتجاهها. واليوم يرجع مفكرو الاقتصاد الرأسمالي إلى ماركس ليخبروا جوهر وآليات الاقتصاد الرأسمالي الذي لم ينبشه أحد مثلما جرى على يد ماركس أو بالأحرى بمداد قلمه. فأزمات الرأسمالية الدورية والمفاجئة وجملة المشكلات المتصلة بها عرفها ماركس وأماط عنها اللثام.. أثبتت الرأسمالية مرونة عالية في التعاطي مع مآزقها وأزماتها والخروج منها ولكن ليس إلى الأبد، وأيضاً ليس من غير الرجوع إلى ماركس.

ومذ توطدت أسس علم الاقتصاد السياسي على يد آدم سمث وريكاردو تعلمنا، مثلما ينوه أنجلس "أن العمل هو مصدر كل الثروات ومقياس كل القيم بحيث أن شيئين تطلب إنتاجهما نفس زمن العمل يمتلكان نفس القيمة، ويمكن بالتالي مبادلتهما ببعضهما ما دامت القيم المتساوية بشكل عام، قابلة للتبادل" مستطرداً (أنجلس) حول ماهية ذلك التناقض في مقاسمة العامل قيمة منتوجه مع الرأسمالي حيث استطاع ماركس تعقب عملية نشوء الربح وكيفية سطوة الرأسمالي على القيمة الزائدة التي مصدرها "العمل الزائد، الأعلى والأكثر من الوقت الضروري للتعويض عن الأجر". ففي كتاب رأس المال يقول ماركس: "فما دام هناك جزء من المجتمع يمتلك حق استثمار وسائل الإنتاج، فإن الشغيلة، أحراراً أو غير أحرار، مرغمون على أن يضيفوا إلى جانب العمل الضروري لبقائهم، عملاً إضافياً لإنتاج وسائل العيش إلى مالكي وسائل الإنتاج".

وقد سبق ماركس غيره بمن فيهم أساطين الاشتراكية الفرنسية في اكتشاف هذا القانون الذي يلخص جوهر الاستغلال الرأسمالي.. يقول أنجلس: "ثمينة هي كتابات أوين وسان سيمون وفوريه وستبقى كذلك، إلا أن مهمة تسلق الذرى كانت محفوظة لألماني". والألماني الذي يقصده هو كارل ماركس. وقد استطاعا معاً أن يؤشرا المحور الذي يستند عليه النظام الاجتماعي في العصر الرأسمالي وهو العلاقة بين العمل ورأس المال. ومن ثم التناقض بين الطابع الاجتماعي للعمل والإنتاج والملكية الخاصة لوسائل الإنتاج.

وعلى الرغم من أن المنظرين الاقتصاديين، بمن فيهم بعض الماركسيين يقرون بالصعوبات التي تعترض هذا الجانب من نظرية ماركس، والثغرات التي تشوبها بسبب تعقيدات الحياة الاقتصادية التي عرفها عصر ما بعد ماركس، ومساهمة رأس المال الثابت (لا سيما الماكنة)، وكذلك المعلومات، في خلق القيمة، وليس العمل وحده، فإن الجوهر الاستغلالي للنظام الرأسمالي يبقى قائماً، ويظل هناك من يعاني من تداعيات آليات السوق الرأسمالية على صعيدي الاقتصاديات القومية والدولية.

وحين نقول أن ماركس لم يطرح نظرية متكاملة في المعرفة، أو في علم الاجتماع أو في علم النفس أو الأنثربولوجيا، أو في أي حقل معرفي آخر فإن هذا لا يعني أن لا تكون للماركسية الآن رؤيتها ونظريتها في الحقول هذه أو غيرها، حيث يطور الباحثون الماركسيون رؤاهم ونظرياتهم استناداً إلى الأرضية التي اشتغل عليها ماركس والقواعد التي أرساها وفي ضوء منهجه، فضلاً عن ضرورة الاستفادة من الكشوفات النظرية والمنهجية والتجريبية في كل حقل من الحقول الإنسانية العلمية التي زاد عددها بحكم توسع التخصصات الدقيقة، نتيجة تراكم المعارف. وفيما يتعلق بعلم الاجتماع، في سبيل المثال، يعرّف البروفيسور دينكن ميشيل صاحب كتاب (معجم علم الاجتماع) كارل ماركس بأنه: "مؤرخ وعالم اجتماعي واقتصادي وسياسي. كان لأفكاره الأثر الكبير في تكوين النظرية الاجتماعية والاقتصادية الحديثة". ويرى: "أن معظم الدراسات الحديثة التي قام بها علماء اجتماع القرن العشرين كان بمثابة تكملة للعمل الأكاديمي الذي شرع به ماركس". عاداً كتاب (الإيديولوجية الألمانية) المصدر الماركسي الأهم الذي أثر على عقول علماء الاجتماع. لكن علم الاجتماع منذ وفاة ماركس وحتى يومنا هذا افتتح مساحات وتخوماً أوسع بفضل جهود مئات العلماء الذين طوروا مناهج متقدمة في دراسة بنى المجتمعات وعلاقاتها وظواهرها وحراكها وتحولاتها. فالعلوم كافة تبقى حقولاً مفتوحة للإضافة والتصويب والتطوير.

وقد لبث الماركسيون يعتقدون لمدة طويلة، وما يزال منهم من يصر على اعتقاده بأن المادية الديالكتيكية هي علم القوانين العامة (الأوحد) للطبيعة والمجتمع والفكر في بنيتها وحركتها.. يقترح المفكر العراقي الدكتور فالح عبد الجبار التخلي عن وهم وجود مادية ديالكتيكية، كاملة، ناجزة، هي الشكل الوحيد والأرقى للمعرفة، ويدعو إلى إطلاع الماركسية وإغنائها وعدم عزلها عن "تيارات العصر الفكرية الكبرى: البنيوية، علم النفس، ما بعد البنيوية، التفكيكية، أو عن مدارس ماركسية هامة مثل مدرسة فرانكفورت أو مدرسة تشومسكي السنديكالية". وذلك كله يتطلب التصدي، بطبيعة الحال، للصعوبات التي تواجه المنهج الماركسي بشقيه (المادي الجدلي) و(المادي التاريخي) من غير مواربة، وتعميقه وتوسيع آفاقه وتعزيز بعده العلمي. وهذا لا يعني بأية حال، الانتقاص من ماركس ونظريته بقدر ما يعني جعل الماركسية علماً حياً يبقى قيد الإنجاز طالما ظل العقل الإنساني يبحث عن الحقيقة التي هي نامية أبداً وزلقة ولها ألف وجه.

أما في حقل السياسة فمن غير التعرف على ماركس وفكره يكون عسيراً التعرف على مسار الفكر والفعل السياسيين منذ القرن التاسع عشر وحتى الآن. فحقل السياسة منذ ذلك الحين مملوء بآثار أقدام ماركس، وما من محطة في السياسة إلا ونقول عنها؛ من هنا مر ماركس. فقد فعل فكره في الواقع التاريخي أكثر مما فعل أي فكر آخر في غضون الألف سنة الأخيرة. ولم يخطئ أولئك الذين عدّوه فيلسوف الألفية الثانية بلا منازع. والتجربة الإنسانية التي حصلت، سواء بإيحاء من نظريته، أو بالضد منها لابد من إعادة قراءتها وإعادة تقويمها من منظوره هو، ولكن ليس من منظوره وحده، ذلك أن الفتوحات المنهجية الجديدة في حقول المعرفة المختلفة والكشوفات العلمية التي حصلت خلال أكثر من مائة سنة منذ رحيله يجب أخذه بنظر الاعتبار لأن ماركس لو كان يعيش بين ظهرانينا في هذا العقد الأول من القرن الواحد والعشرين لما أغفل تلك الفتوحات والكشوفات كلها. فالمنظور الماركسي اليوم، لابد أن يتمثل المنظورات التي ظهرت بعد ماركس عبر تمحيص نقدي. ذلك أن ماركس ابتدع مجالاً للفكر يتعاطى جدلياً مع كل ابتكار مضاف، وكل معرفة تنبثق، وكل تحول في الواقع، ومن هنا علمية منهجه وموضوعيته. وحتى أولئك الذين دشنوا المعارف والمناهج الجديدة لهم قرابة ما، بهذه الدرجة أو تلك، مع ماركس وفكره، حتى وإن ادعوا ناكرين للجميل غير ذلك.

إن المقاربة الماركسية للعالم قد حوّل العالم حقاً.. إن العالم على الرغم من انحسار الماركسية في الظاهر قد تبدل إلى الأبد مذ قال ماركس كلمته، وما حوله ليس فقط كلمة ماركس، ولكن من غير ماركس وكلمته لكان العالم اليوم شيئاً آخر، ليس أفضل بالتأكيد. إذ من لجم الوحش الرأسمالي هذه المدة كلها غير ما كشفه وقاله ودعا إليه كارل ماركس؟!.

خلف ماركس تراثاً ضخماً ثرياً، ملتبساً، متناقضاً بعض الشيء، أقله بين ماركس الشاب وماركس (رأس المال)، وبين الجزء الأول من رأس المال والجزء الثالث منه. غير أن مثل هذا التناقض لم يكن يشير إلى تهافت في الفكر بأي شكل بقدر ما كان يعكس حيوية عقل جدلي (تحليلي تركيبي) متقد يتطور إذ ينظر إلى عالم يتغير. عالم عاج بالأضداد، بالصراعات.. عالم غاية في التعقيد، وعلى وشك تحوّل تاريخي جبار، ذلك أن ماركس لم يكن ينظر إلى المشهد من عل، وإنما كان في قلبه.. سعى إلى أن يكون جزءاً منه.. إنه مفكر ومناضل في الوقت عينه.. يؤمن بالفعل ويحرّض عليه، ويساهم في إدارته وتحقيقه بهذا القدر أو ذاك، وفلسفته هي فلسفة البراكسيس (التطبيق العملي/ الممارسة الثورية) فكره ملتحم بحياته وتجربته. فهو لا يكتفي بالتفسير بل يرمي إلى تحويل العالم من حوله.

وقد ترك ماركس نظرية ناقصة، لا لأنه لم يستطع إكمالها، بل لأنه كان محكوماً بشرطه البيولوجي - حتمية الموت - إن حياة فرد واحد قصيرة جداً إذا ما كان يضطلع بمهمة فكرية ضخمة مثلما كان شأن ماركس.. فالنظام الرأسمالي الذي نذر ماركس حياته لدراسته، يقوم على أربعة عناصر مترابطة عضوياً، مثلما يقول الدكتور فالح عبد الجبار "هي الرأسمال، والدولة، والسوق العالمي، والتجارة الدولية. فمعمار العالم كما أشادته الرأسمالية، هو رباعي المرتكزات. إنها تشكيلة كونية"، وبحسب ملاحظة الدكتور فالح فإن ماركس لم يستطع "دراسة هذه المنظومة الرباعية كلها" والآن أيضاً "لا الرأسمالية توقفت، وما كان لها أن تتوقف، عند حدود حياة ماركس، ولا بقي المنهج الذي درس به الظاهرة (كأدوات تحليل واستبطان) على حاله... ما بقي ثابتاً هو ضرورة نقد الرأسمالية، المستمر، الدائم المتغير (تبعاً للظروف) والبحث عن إمكانات تجاوزها انطلاقاً من تطورها هي بالذات، لا من تمنيات مصلح أو طوباوي".

العالم بحاجة إذن إلى أكثر من ماركس من أجل فهم حركة الحياة (التي تطبعها اليوم الرأسمالية بطابعها) ومآلها من المنظور الذي ارتآه ماركس، وعبر المنهج الذي اختطه، مع إثرائه وتطويره.. والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام هو: هل نكتفي من الماركسية الآن بما يقوله الماركسيون الآن، بعد أن طرح تطور الواقع الموضوعي كثراً من المفاهيم والتصورات والتنظيرات السابقة التي أثبتت فسادها أو محدوديتها أو نسبيتها؟ أم أنها تركيبة نظرية متشعبة ومتنافرة مما قيل قبلاً من قبل الماركسيين منذ أنجلس وكاوتسكي ولينين وتروتسكي وستالين وما يقال الآن؟ وماذا عن فكر ماركس نفسه؟.

أعتقد، أن أي ماركسي جديد سيواجه معضلة التعامل مع هذا التراكم من التراث الفكري الذي خلفه ماركسيو العالم عبر أكثر من قرن منذ وفاة ماركس، لكنه بالمقابل سيكون محظوظاً لأنه سيجد في متناوله الأسس النظرية والمنهج والأهم هذه التجارب كلها التي استلهمت نظرية ماركس بنجاحاتها وإخفاقاتها.. بتفاصيلها كلها.. إن أي ماركسي جديد سيكون ملزماً بتقويم تجارب الفكر والممارسة أيضاً التي تسمت بالماركسية. ومن غير أن تفقد الماركسية هويتها ورسالتها الاجتماعية.. يقول هربارت ماركوز في مستهل الفصل الأول من كتابه (الماركسية السوفياتية): "تستدعي البنية الجدلية للنظرية الماركسية أن تتغير مفاهيمها كلما تحولت العلاقات الطبقية الأساسية التي تريد هذه المفاهيم أن تعبر عنها، لكن بصورة يمكن معها الحصول على المضمون الجديد عن طريق تطوير العناصر الملتحمة بالمفهوم الأصلي. وبذلك يحافظ المفهوم على انسجامه النظري بل على هويته".

ضاع ماركس بين ركام التأويلات والاجتهادات.. صارت عندنا ماركسيات لا تعد ولا تحصى.. تشظت النظرية، مثل النظريات والعقائد الكبرى في التاريخ كلها، وتعددت، حتى بات نافلاً التساؤل؛ من هو الماركسي الشرعي؟؟ وما هي الماركسية التي أرادها ماركس؟ وقد تساءل أحد المفكرين فيما إذا كان ماركس نفسه ماركسياً؟!. إن اختلاف الماركسيين لم يتأت من اختلاف الأمزجة أو نتيجة البطر الفكري، وإنما فرضته تعقيدات الحياة السياسية والاقتصادية في القرن العشرين. والتطور الهائل الذي حصل مع القوى الإنتاجية، ومقدرة الرأسمالية على التكيف مع أزماتها وتناقضاتها وإفصاحها عن مرونة عالية في تغيير وسائلها وأساليبها لتذليل معضلاتها بكفاءة.. ليس من حق، حتى ماركس نفسه، افتراضاً، لوم الماركسيين الذين أعادوا صياغة النظرية على وفق معطيات السياق التاريخي الذي عاشوا فيه، وبتأثير من موجهاتهم ومصالحهم وأهدافهم، وبطبيعة الحال ليس من منطلق تسويغ تخريجاتهم، بل عبر وضعها على مشرحة النقد وتسليمها لمبضعه. ولو كان ماركس اليوم حياً فبالتأكيد لقال شيئاً مختلفاً، واستناداً إلى هذه الفرضية علينا أن ننظر إلى إرثه ونقومه واضعين إياه في سياقه التاريخي.. وإذن:

هل يسمح لنا أن نفرّق بين ماركس والماركسية؟ هل يجوز منهجياً أن نستعير تفرقة محمد أركون، وهو يدرس تاريخ الفكر الإسلامي، بين الظاهرة القرآنية (القرآن والحاشية النبوية عليه) وبين الظاهرة الإسلامية، أي كل ما كتب عن الإسلام، فيما بعد، ونحن بصدد تناول ماركس والماركسية؟. أو بمعنى؛ هل لنا أن نعيد صياغة سؤالنا الأول أعلاه على النحو التالي؛ هل يجوز أن نقول بالتفرقة بين ما كتبه ماركس وأنجلس من جهة (ظاهرة ماركس) وبين التراث الماركسي كله (الظاهرة الماركسية) الذي أنجزه ألوف من الباحثين والمفكرين والمعقبين والمعلقين المستلهمين فكر ماركس، طوال أكثر من قرن من الزمان، ذلك التراث المتشعب الواسع والمتعدد التوجهات؟ ثم، بم تفيدنا مثل هذه التفرقة؟. مع الإشارة بطبيعة الحال إلى أن هذا التقابل، في الاستعارة من أركون، افتراضي للاختلاف البنيوي والوظيفي بين فضاء النظريتين (الماركسية والإسلامية).

وإذا كان مقصد أركون هو تفكيك الظاهرة الإسلامية ونقدها من دون المساس بالظاهرة القرآنية فإن الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بماركس والماركسية، فكلا الظاهرتين يجب تناولهما نقدياً وتفكيكهما في ضوء الوقائع المستجدة على الساحة العالمية، في عصر العولمة هذا. وباستخدام الأدوات المنهجية العلمية التي تساعدنا في الوصول إلى أوضح وأدق رؤية ممكنة، أو إلى أفضل تقويم ممكن.

نعرف أن النص بمجرد أن يُكتب ويُنشر يغدو ملك الآخرين، وأما فهم الآخرين فلابد أن ينال من براءة النص.. من صفائه.. إن نصاً طويلاً معقداً متشعباً وغير مكتمل مثل (رأس المال) في سبيل المثال لابد أن يفضي إلى تفجر دلالات هائل فيما بعد. وكل أولئك الذين قرأوه من أنجلس وكاوتسكي ولينين وبليخانوف وروزا لوكسمبورغ وتروتسكي وستالين وحتى لوكاش وغرامشي وغارودي وألتوسير وماركوز وهابرماس وآخر متيم بماركس له الحق في أن يفهم ويؤول كما يشاء. هذا لن يحمل ماركس المسؤولية، ولن يستحق من يؤول على فهمه وتأويله الإدانة، من غير إعفائه، بطبيعة الحال، من التعرض للنظر النقدي الحاد. ويبقى النبع هو ماركس الذي يغري دوماً بالعودة إليه والاغتراف منه. وقوة نص ماركس هي في حضوره، في إمكانية استعادته دوماً، في قدرته على التسلل والتأثير حيثما يكون الأمر موجباً. وقد يقول قائل أن النبع يتلوث من فرط ما يلقى فيه ويؤخذ منه حتى يغدو من العسير أو من المستحيل تنقيته. بمعنى أننا في هذا المقام لن نستطيع قراءة ماركس مع نسيان أطروحات جيش الماركسيين ومنتقديهم طوال أكثر من قرن. والسؤال؛ هل يجوز بأية حال، العودة إلى ماركس وإغفال كل ما قيل عن فكره في ما بعد لاكتشافه؟ هل من الممكن أو الضروري استبعاد أنجلس وكاوتسكي وبليخانوف ولينين وستالين وبوخارين وكل أولئك الذين استلهموا ماركس وأخلصوا لفكره، أو أساؤوا إليه، كل على طريقته؟. ثم كيف لأي أحد يرغب في إعادة قراءة ماركس أن يتخلص من عوالق قراءاته للماركسية بتراثها الهائل، المعقد، والمتناقض؟ وكيف له أن يجزم بأنه لن يقع في أسر الفرضيات والتحيزات والقناعات والتأثيرات اللاواعية والواعية التي حكمت قراءات الماركسيين لماركس قبله؟.

إن رهان المفكر الماركسي في راهننا هو في تقمص ماركس، عقلاً وروحاً، رؤية ومنهجاً، وجعله يتكلم كما لو كان حياً بيننا الآن. والماركسي الحق هو من يقترب (وإن كان هذا افتراضاً متخيلاً) مما كان سيقوله ماركس لو كان حياً في هذا الوقت.

غدت الماركسية شيئاً مستقلاً، منفصلاً عن ماركس نفسه.. الماركسية قبل ماركس إمكانية نظرية ثاوية في رحم الواقع التاريخي اكتشفها ماركس وطورها عبر سنوات حياته. وحين توفي، وحتى قبل ذلك، صارت إرثاً مبذولاً للبشرية كلها. وهذه الماركسيات المتفرعة تجعلنا في حيرة من أمرنا للوهلة الأولى. ويغدو السؤال؛ أيها تمثل ماركس حقاً، لا أهمية معرفية له طالما أننا مع نظرية تتصل بمتغيرات الزمان والمكان، وبالموضع المتحول للكائن الإنساني والمجتمعات الإنسانية. وإننا، في الأحوال كلها، لن نستطيع الإقرار بوجود قوانين موضوعية قارة ونهائية لحركة المجتمع والتاريخ برمته لها دقة القوانين الطبيعية اكتشفها ماركس، كما يحلو لبعض أرثوذكسيي الماركسية أن يقولوا جرياً على ما ادعاه ستالين. ولكل من تلك الماركسيات مسوغات وجودها، وشرعيتها بهذا القدر أو ذاك. وقد يبدو غريباً القول أن بعضاً من تخريجات ماركس نفسه هو مقترح واحد لماركسية خصبة لا تكف عن توليد تخريجات أخرى. ولذا لن تكون ثمة ضرورة أو معنى للسؤال إن كان ماركس نفسه ماركسياً طالما أنه ضاع بين التأويلات المتباينة والمتنافرة والمتناقضة أحياناً.. كلهم ورثته، لاشك، حتى أولئك الذين اشتطوا وتطرفوا وارتكبوا الفظائع، لكن ماركس في النهاية يبقى بريئاً مما فعله الماركسيون أو المتمركسون أو أدعياء الماركسية. والتاريخ يعلمنا أن العظماء من المفكرين يشمخون هناك، إذ يلقون إفراطاً في التبجيل تارة، وإفراطاً في الذم تارة أخرى.. يُقبلون من بعضهم من غير مساءلة، ويُرفضون من بعضهم الآخر من غير أدنى معرفة.. والنظريات والفلسفات الكبرى عبر التاريخ كانت تلهم القديسين والمفكرين والشعراء والطغاة والضحايا والطيبين والجزارين في الوقت نفسه، والنظرية الماركسية لا تشذ عن هذه القاعدة..

إن التراث الماركسي ليس في ما كتبه الماركسيون فقط، بل ما كتبه منتقدوهم أيضاً ومناوئوهم.. ألسنا كلنا ورثة ماركس من هذا المنظور أيضاً، كما يقول جاك ديريدا؟: "إن المسؤولية ستكون هنا، لمرة إضافية أيضاً، هي مسؤولية التوارث. وإن كل البشر فوق الأرض جميعاً هم اليوم بمعنى من المعاني، ورثة ماركس والماركسية سواء أرادوا ذلك وعلموه أم لا. وهذا يعني أنهم، لنقل هذا في هذه اللحظة، ورثة الفرادة المطلقة لمشروع - أو لوعد - ذي شكل فلسفي وعلمي". كما أن كل أولئك الذين انتقدوا الرأسمالية والمجتمع البرجوازي، حتى من منطلقات وأسس مختلفة عما تقول به الماركسية قد أعانوا ماركس واكملوا مشواره، وكانوا مدينين له بقدر أو بآخر، أو يمكن القول واقعين في أسره إلى حد ما، وإن جحدوا فضله.. فوكو وهو يماثل إرادة المعرفة بإرادة القوة ويعلمنا "أن كل شيء هو رهن للعبة السلطة، وإن اللغة والجسد هما جزء لا يتجزأ من جهاز تبرير السلطة" وبعد أن تجول فوكو، وعلى حد تعبير فرنسوا دوس "طويلاً في الحدائق المحرمة للثقافة الغربية وفي أعماق مكبوتها ومطموسها لكي يكتشف أصل الجنون والجنس والجريمة والسجن وشروط ظهورها والخطوط الفاصلة بينها وبين ما عداها". وإدوارد سعيد وهو يفضح انشباك السياسي بالمعرفي في خطاب الاستشراق، ويميط اللثام عن موجهات التمركز الغربي بغاياته الإمبراطورية في النص الأدبي الغربي. وديريدا وهو يفكك فكرة تمركز الغرب حول ذاته. وبودرياد وهو يكشف الآليات القمعية لمجتمع الاستهلاك. وهابرماس وهو يسعى لإعادة الاعتبار لمفاهيم الحداثة ومشروعها في مواجهة التخريجات الهدامة لدعاة ما بعد الحداثة. وآلن تورين وهو يدعو إلى إعادة اللحمة بين مقولات الحداثة (الذات والعقل والحرية)، والقائمة تطول.

إننا في هذه الفوضى العارمة التي تستدرج الناس نحو اليأس والعدمية بحاجة إلى ماركس وأمثاله،وإلى عيون ماركس وعيون أمثاله لنرى، ونراجع مواقفنا، تاريخنا كله، ومن منظور نقدي لا يهادن.

المصادر:
١. (موجز رأس المال) فردريك أنجلس.
٢. (معجم علم الاجتماع) دينكن ميشيل.
٣. مقال (تأملات في الماركسية) الدكتور فالح عبد الجبار.
٤. (الماركسية السوفياتية) هربارت ماركيوز.
٥. (أطياف ماركس) جاك ديريدا.

الآثار النفسية للطلاق

د. رضا الموسوي
اكاديمي

يمكننا ان نصنف أسباب الطلاق في المجتمعات الغربية والعربية والمحلية ضمن أسباب عامة وأسباب خاصة. وتشمل الأسباب العامة الظروف الإقتصادية تطور مركز المرأة الإجتماعية وحريتها ونزولها إلى ميدان العمل،وشعورها بقيمتها واستقلالها الإقتصادي، عدم قيام الزواج على أسس واضحة، إذ قد يقوم على دوافع المنفعة اوالتورط،الإختلاف في المستوى الثقافي،الوضع الإجتماعي والسن، الإخلال بالشروط المتفق عليها،عدم الإستقرار العائلي وتعذر الوصول إلى حلول وسط بصدد المشاكل والعوامل المؤدية إلى التوتر في محيط الأسرة. أما الأسباب الخاصة فمنها مايرتبط بالزوجين مثل: الكراهية، تعدد الزوجات، سوء معاملة الزوجة،عدم القدرة على تحمل نفقات الأسرة، الفرق في السن، المرض، عدم توفر العمل المناسب لأداء واجبات الأسرة، ضعف الإلتزام وعدم القدرة على التوافق، ومنها أيضا ما يتعلق بالزوجة مثل كراهية الزوج والنفور منه، سوء أخلاق الزوج ورعونته، مرض الزوجة وعدم قدرتها على أداء واجباتهاالزوجية المشروعة، خيانة الأمانة الزوجية، فارق السن،وعدم طاعة الزوج.

و يذهب علماء الاجتماع الى أن الطلاق مرض اجتماعي خطر يهدد كيان المجتمع والأسرة والأفراد وقد لوحظ انه كلما اصبح الطلاق ميسورا زاد استهتار الناس بالزواج كنظام اجتماعي ومن هنا تزايدت معدلا ت الطلاق في العالمين الغربي والعربي نتيجة تخفيف القيود الزوجية وتيسيرأسباب الطلاق، فضلا عن معرفة الناس بالقوانين المتعلقة بالطلاق حتى قبل إقدامه على الزواج.

ولاشك في أن الطلاق عملية تطورية تبدأ بظهور الأسباب ثم تستمر العملية إلى ما بعد الطلاق وفي ذلك يشير معظم الباحثين في مجالات علم النفس الاجتماعي إلى أن الطلاق يمر بسبع مراحل سيكولوجية منفصلة ولكنها مترابطة مع بعضها حيث تؤدي إحداها إلى الأخرى وتعد المرحلة التالية نتيجة طبيعة للمرحلة السابقة عنها. ويمر الزوجان بهذه المراحل على حد سواء حيث يتأثر كل منهما بها وهي على الترتيب التالي:

أ. مرحلة الانفصال الفكري

إن بداية ظهور المشكلات بين الزوجين و استمراريتها كفيل بأن يحدث إنفصالاً فكرياً بينهما حيث يفكر كل منهما بطريقة مختلفة عن طريقة تفكير الآخر حول المشكلة، بل قد تكون مضادة لها وعلى النقيض منها مما يزيد من شدة الخلاف بينهما. ومما يصعد الخلافات حتى ليصعب الإلتقاء بينهما على فكرة مشتركة.

وتمثل هذه الحالة البداية للاتجاه نحو الطلاق، إذ يؤدي استمرارها إلى المرحلة الثانية والمتمثلة في التباعد الوجداني.

ب. مرحلة الانفصال الوجداني

مع استمرارية الانفصال الفكري بين الزوجين واحتفاظ كل منهما برأيه الخاص المخالف والمنفصل عن رأي الطرف الآخر يبدأ كل منهما ممارسة سلوكيات قد تكون غير مرغوبة وغير مقبولة في نطاق الأسرة. هذا الانفصال الفكري والسلوكي يؤدي إلى انفصالهما الوجداني و برود مشاعرهما وأحاسيسهما وعواطفهما نحو بعضهما.

ج. مرحلة الانفصال الجسدي: مع استمرارية التباعد الوجداني والعاطفي تبدأمرحلة جديدة حيث يؤدي ذلك إلى التباعد الحقيقي على المستوى المادي فيصبح أداء الحقوق والواجبات الزوجية بين الزوجين عملاً روتينياً أشبه بأداء الواجب ء مما يزيد من كرههما لبعضهما، ومن ثم يعمد كل منهما إلى الإنفصال الجسدي عن الآخر بطريقة عملية حيث يستخدمان فراشين منفصلين عن بعضهما.

د- مرحلة الانفصال الشرعي القانوني:

، عندما تصل الحالة بالزوجين إلى الإنفصال المادي (الجسدي)، لا يكون هناك مبرر لوجودهما مع بعضهما في بيت واحد حيث لا تتحقق أدنى معاني الحياة الزوجية التي ينشدها كل منهما فيصبح الطلاق موضع تفكير أحدهما أو كليهما، وقد يتحول التفكير إلى تكرار فعلي حيث تنتهي الحياة الزوجية بالطلاق.

هـ- مرحلة الانفصال الاقتصادي المادي:

يصاحب عادة واقعة الطلاق اجراءات اقتصادية يحكمها الشرع والقانون، حيث يبدأ كل من الزوجين دفع ما عليه من التزامات مادية وأخذ ماله منها وقد تتم التسوية المادية بينهما بالحسنى وفي جومن التسامح والإحترام المتبادل للاخر وقد ترتبط هذه المرحلة بالكثير من المشكلات، حيث قد يثير أحد الطرفين أو كلاهما المشكلات التي لا هدف منها إلا التنفيس عن مشاعر الحقد والإنتقام وشدة الكراهية من الطرف الذي يثيرها وقد يكون ذلك لعدم رغبته في أداء التزاماته،مما يقود إلى مزيد من الصراعات، فيواجه كل منهما الآخر بأسراره، وكشف عيوبه وتعرية ما خفي من سلوكياته في ساحات المحاكم وأمام الأصدقاء والأسرة.

و مرحلة الانفصال الابوي:

قد يكون في الطلاق نهاية لبعض مشكلات الزوجين، ولكنه بلا شك سيتسبب في مشكلات أخرى تؤثر تأثيرا مباشراً في أطفالهما إذا كان لهما أطفال. وقد يتفق المطلقان بطريقة ودية متميزه بالتسامح والتفاهم على كيفية رعاية الأطفال من حيث توفير المكان المناسب الذي يؤويهم، وتحديد الشخص المناسب الذي يشرف على رعايتهم، وعلى مصدر الإنفاق، ومقداره اللازم لتغطية مصروفاتهم ونفقاتهم، وطريقة لقائهم أبويهم وغيرها من الأمور التي عادة تنظم علاقة المطلقين ببعضهما وبأطفالهما بعد حدوث الطلاق مباشرة وخلال الفترات التالية لها لأنها تعتبر مرحلة إنفصالية بالنسبة لأحد الأبوين عن أطفاله لوجودهم عند الطرف الآخر أو إنفصالهما هما الإثنان عن أطفالهما لوجودهم مع أحد الأقارب أو في أماكن خاصة تتولى رعايتهم والاشراف عليهم.

ز- مرحلة الانفصال النفسي الانفعالي:

يعتقد بعض المطلقين ان المشكلات تنتهي بالطلاق أو حتى بالقدرة على الإتفاق على حل مشكلات الأبناء إلا أن هنالك مشكلات تظهرمن نوع جديد تمس الجانب الشخصي للمطلقين والمطلقات لأنها تتعلق بالحالة النفسية المضطربة لهما، والتي تؤثربالضرورة في إنفعالاتهما التي تضطرب بصورة ملحوظة وواضحة للجميع. وتتصف مرحلة الإنفصال الإنفعالي النفسي التي يمر بها الشخص في هذه المرحلة بانعزاله عن الناس وتفضيله الإختلاء بنفسه لمراجعةحساباته وإستعادة ذكرياته بحلوها ومرها مع الطرف الآخر، وتقويم سلوكياته معه، وتحديد إيجابياته وسلبياته، ومقارنة واقعه بعد الطلاق بحاله أثناء الزواج، ورسم خططه المستقبلية، والتعرف على إمكاناته وقدراته ومدى امكان البدء من جديد في خطوة أخرى نحو زواج ثان، ومن ثم يتناب الشخص المطلق عقب طلاقه مباشرة حالة من القلق الدائم والإكتئاب المستمر، مما يجعله يشرد بذهنه عما حوله. وقد يتعثر المطلق بعد طلاقه مباشرة، فلا يستطيع عبور مرحلة الإنفصال الإنفعالي النفسي،مما يدفعه لمقاومتها والتغلب عليها بكافة الوسائل السوية وغير السوية. فقد يغرق نفسه في أعمال إضافية جادة ترهق أعصابه وتوترها أو في أعمال ترفيهية تبعده عن الواقع الذي يعيش فيه،فيصبح على هامش الحياة لا نفع منه ولا قيمة.

الآثار النفسية للطلاق

يشير الكثير من الباحثين إلى الدراسات السيكولوجية واشارتها للاثار السلبية للطلاق حيث تفيد بأن نسبة كبيرة من المطلقين والمطلقات يعانون تنوعاً متبايناً من الاضطرابات الانفعالية الحادة والأمراض النفسية الشديدة ومنها الشعور بالقلق والإكتئاب والصراع وعقدة الذنب،وتأنيب الضمير وإيلام الذات وكره الذات والاضطرابات السيكوجنسية، ويتعرضون كثيراً للاحباط، ويخبرون مشاعرالحرمان والظلم والقهر والتوتر، وتتسلط عليهم أفكار العداوة والتشاؤم والانهزامية، وجميعها مشاعر وأفكار سيئة ترتبط بقائمة طويلة من الأمراض السكوسوماتية والعادات السلوكية كتعاطي المخدرات وإدمان الكحول.

وبرغم معاناة المكتبة العربية قلة الدراسات في مجال آثار الطلاق السلبية على المطلقة، وكل ما بمكن الحصول عليه في هذا المجال لا يتعدى المقالات أو الدراسات المرتبطة بأثر الطلاق على الأبناء أو أسباب الطلاق، وعلى العكس من ذلك فقد تناول الباحثون في العالم الغربي بوجه خاص اثر الطلاق في المرأة المطلقة وذلك في علاقتها بالمتغيرات المختلفة، كعلاقة بالاضطرابات النفسية للمطلقة وبخاصة القلق والاكتئاب، فقد اشارت نتائج العديد من الدراسات الغربية إلى أن للطلاق آثاره النفسية بصورة إجمالية على الصحة النفسية للمطلقة، وعلى رفع درجة القلق والاكتئاب بصفة خاصة. وفي هذا السياق أجريكل من تشنج وبرنس (١٩٨٣& Tcheng Prince)دراستهما على عينة من الأمهات المطلقات شملت(٣ من الكنديات من أصل فرنسي و ٣٣ من الكنديات من اصل إنجليزي) وذلك بمتوسط عمري ٣٩,٤ سنة و ٨ ،٤٠سنة على التوالي. وعينة ضابطة من المتزوجات من نفسس الأصل وبمتوسط عمري:٤٠,١ و ٧,٦ ٣ على التوالي. وقد تبين من الدراسة أن الأمهات المطلقات يعانين عدة مشكلات منها ضعف الرضا العام عن الحياة Satisfaction Life Geeral وضعف احترام الذات -Self Esteem،وضعف الإشباع الجنسي Satisfaction Sexual كما تبين أنهن أكثر تعرضا للضغوط الصحية Health Stress وأكثر تلقيا للعلاج النفسي، كما تبين أن الكنديات من اصل إنجليزي يظهرن درجة أعلى من الإكتئاب ويعاودن العلاج النفسي بشكل اكبر من ذوات الأصل الفرنسي أو غير المطلقات وهو ما يشير إلى ضعف الدعم الاجتماعي والظروف السياسية. كما تبين من دراسة كارترايت وآخرون al Cartwright et 1984 والتي ركزت على دراسة علاقة الطلاق بكل من القلق والاكتئاب فاشارت الى أن للطلاق أثره الكبير في حياة المطلقة ومشاعرها وما تتعرض له من ضغوط وأيضا على أساليب التكيف الشعورية والاشعورية، وفى محاولة لمعرفة طبيعة الأساليب اللا شعورية للتكيف قام الباحثون في هذه الدراسة بتفسير ودراسة أحلام مجموعة تألفت من (٢٩) من المطلقات بين سن ٣٠ و ٥٥ سنة حيث تم تطبيق اختبار بيك للاكتئاب عليهن وتم تقسيمهن إلى ١٩ من المكتئبات و١٠ من غير المكتئبات وهذا يعني أن ٦٦ ٪ منهن تعرضن للاكتئاب. كما تمت المقارنة